التفسير العلمي للقرآن الكريم
بين مبررات الواقع وشبهات المنكرين

د. رمضان بخلف
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة

مقدمة :

يمثل التفسير العلمي للقرآن الكريم أحد الاتجاهات التي ظهرت في تاريخ حركة التفسير، ومنذ أن ظهر التفسير بالرأي للقرآن، وبدأت العلوم العقلية تنال مكانتها في كتب التفسير، بدأ هذا الاتجاه هو الآخر يبحث عن مكانته، فوجد له أنصارا ومؤيدين، مثلما وجد له خصوما ومعارضين، ومع ظهور الكشوف العلمية المتزايدة في العصر الحديث، وما لوحظ في القرآن الكريم من آيات كثيرة تضمنت إشارات دقيقة لأصول هذه العلوم، ازداد الاهتمام بهذا النوع من التفسير لآي الذكر الحكيم، فظهرت حركة حثيثة تسير في هذا الاتجاه على الرغم مما وجد من معارضين لها، وقد تمسك كل فريق بجملة من الحجج في تعزيز موقفه، ونحن في هذا البحث سنعرض لبسط حجج المنكرين للتفسير

العلمي للقرآن وتحليلها، محاولين الوصول إلى الرأي الشبيه بالحق والصواب في هذا الموضوع

تعد النزعة العلمية في تفسير القرآن الكريم فكرة قديمة في تاريخ التفسير، حيث أن التطلع إلى البحث في القرآن الكريم عن تفسير بعض الظواهر الكونية ظهر مبكرا منذ عصر التنزيل، ونلحظ هذا في سؤال بعض الصحابة لنبيهم الكريم عن الأهلة، فقد ذكر الطبري وغيره في تفسير قوله تعالى:" يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج.." أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن زيادة الأهلة ونقصانها واختلاف أحوالها، فأنزل الله تعالى ذكره هذه الآية جوابا لهم فيما سألوا عنه، وذكر الطبري في ذلك أخبارا وآثارا، ثم فسر الآية في ضوء سبب نزولها فقال: (فتأويل الآية إذا كان الأمر على ما ذكرنا عمن ذكرنا عنه قوله في ذلك: يسألونك يا محمد عن الأهلة ومحاقها وسرارها وتمامها واستوائها، وتغير أحوالها بزيادة ونقصان ومحاق واستسرار، وما المعنى الذي خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة أبدا على حال واحدة لا تتغير بزيادة ولا نقصان، فقل يا محمد خالف بين ذلك ربكم ..مواقيت لكم ولغيركم من بني آدم في معايشهم.)[1]

بل نجد الطبري (ت :310هـ) وهو رائد مدرسة التفسير بالمأثور تستوقفه كثير من الآيات التي فيها إشارات علمية، فيستعرض فيها أقوال السلف من الصحابة والتابعين التي توحي بتطلعهم للتفسير العلمي لهذه الآيات، فيسهب الطبري في سردها، ثم يتخير منها ما يراه متجها إلى معنى الآية، ومن الآيات التي وقف عندها الطبري وأشار من خلالها إلى النواة الأولى للتفسير العلمي عند السلف ما يأتي[2]:

---

[1] . الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرءان، 1:253.

[2] . جامع البيان، ج10:24/28/29.

- "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما.."[1]

- "..وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون "[2]

- "وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون"[3]

- وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول"[4]

ومن هنا فإن دعاة هذا الاتجاه في التفسير قد رفعوا لواءه في مختلف القرون، ونذكر منهم أبا حامد الغزالي (ت:505هـ) في كتابه إحياء علوم الدين الذي قرر (أن هذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات يختص أهل الفهم بدركها .)[5]

ثم أكد هذا الرأي في كتابه "جواهر القرآن " وتابعه على ذلك أبو الفضل المرسي[6] الذي ذكر أن (القرآن قد جمع علم الأولين والآخرين بحيث لم يحط

---

[1] . سورة الأنبياء، الآية:30.

[2] . سورة الأنبياء، الآية : 30.

[3] . سورة الأنبياء،الآية :5.

[4] . سورة الفيل، الآية:6/5/4.

[5] . أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار عالم الكتب، 260/1

[6] . هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي المرسي، عالم بالحديث والتفسير والفقه والأصول والنحو، ولد بمرسية في الأندلس سنة:570هـ رحل إلى مصر والحجاز والعراق وخراسان والشام ثم عاد إلى دمشق، ثم استقر بالمدينة، ومات وهو في طريقه إلى الشام سنة:655هـ من آثاره: ري الظمآن في تفسير القرءان، والتفسير الأوسط والتفسير

بها علما حقيقة إلا المتكلم بهِ، ثم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلا ما استأثر الله تعالى بعلمه ـ ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم.)[1]

ولما جاء السيوطي (ت:911هـ) في القرن التاسع أحيا هذا الإتجاه حيث عقد بابا في كتابه الإتقان تحت عنوان " العلوم المستنبطة من القرآن وهو النوع الخامس والستون " فقال فيه (وأنا أقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السماوات والأرض وما في الأفق وتحت الثرى.)[2]

(واستمر ت فكرة اشتمال القرآن على جميع العلوم إلى عصرنا، ومعتمد العلماء فيها هو معتمد السيوطي ومن هم على رأيه، ولكن الأهداف تنوعت، فلئن كان إبراز جانب الإعجاز هو أساس الفكرة عند الأقدمين، فقد أضاف إليه المعاصرون جانبا دفاعيا عن القرآن لتبرئة ساحته، ورفع مسؤولية الانحطاط الذي آل إليه حال الأمة الإسلامية في أكثر من جانب.

غير أن أنصار التفسير العلمي للقرآن الكريم في القديم والحديث لم يكونوآ على درجة واحدة، بل كان منهم المعتدلون الذين أثبتوا ذكر القرآن لبعض العلوم بما يمكن أن تكون دليلا آخر يضاف إلى دلائله الإعجازية، وكان منهم المتحمس الذي حاول تحميل القرآن الكريم ما ليس منه، فجزم بأن القرآن الكريم هو مصدر كل العلوم، وهو ما حمل فريقا من العلماء على

الصغير. انظر في ترجمته طبقات المفسرين للسيوطي:35، وبغية الوعاة في طبقات النحاة له أيضا:144/1.

[1] . محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مج 278/2.

[2] . السيوطي، الإتقان في علوم القرءان، عالم الكتب، بيروت،ج 125/2

الرفض والإنكار لهذا النوع من التفسير، فأسرفوا في القول بفساده وبطلانه عندما لم يميزوا بين الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم كشاهد على عظمة الخالق، وبين غيرها من العلوم التي عرفها الناس وأراد هذا الفريق المتحمس أن يجد لها سندا من كتاب الله تعالى . ومن الحجج التي اعتمدها المعترضون على التفسير العلمي للقرآن الكريم ما يأتي :

1 ـ الدليل الأول ويستند إلى ما ذهب إليه أبو إسحاق الشاطبي (ت:780هـ) في كتابه "الموافقات" في كلامه عن موضوع علم التفسير حيث قال :(.. علم التفسير مطلوب فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلوما فالزيادة عليه تكلف، ويتبين ذلك في مسألة عمر لما قرأ "وفاكهة وأبا "[1] توقف في معنى الأب، وهو معنى إفرادي لا يقدح في علم المعنى التركيبي للآية ..فبقي التفصيل في كل فرد من تلك الأفراد فضلا، فلا على الإنسان ألا يعرفه .

• ولما كان السؤال في محافل الناس عن معنى "والمرسلات عرفا .. "[2] مما يشوش على العامة من غير بناء عمل عليه أدب عمر "ضبيعا" ـ السائل ـ بما هو مشهور، فإذن تفسير قوله تعالى :" أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها .."[3] الآية، بعلم الهيئة الذي ليس تحته عمل غير سائغ، ولأن ذلك من قبيل ما لا تفهمه العرب، والقرآن إنما نزل بلسانها وعلى معهودها .)[4]

(وكذلك القول في كل علم يعزى إلى الشريعة لا يؤدي فائدة عمل، ولا هو مما تعرفه العرب، فقد تكلف أهل العلوم الطبيعية وغيرها الاحتجاج على صحة الأخذ في علومهم بآيات من القرآن وأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم،

---

[1] . سورة عبس، الآية: 31.

[2] . سورة المرسلات، الآية : 1.

[3] . سورة ق، الآية:6

[4] . الشاطبي ، الموفقات في أوص الأحكام، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ،26/1.

كما استدل أهل العدد بقوله تعالى: "فاسأل العادين"[1]، وأهل الهندسة بقوله تعالى:"أنزل من السماء مَاء فسالت أودية بقدرها"[2] وأهل التعديل النجومي بقوله:"الشمس والقمر بحسبان "[3] وجميعه يقطع بأنه مقصود لما تقدم، وبه تعلم الجواب عن السؤال الرابع، وأن قوله: " أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء"[4] لا يدخل فيه من وجوه الاعتبار لعلوم الفلسفة التي لا عهد للعرب بها، ولا يليق بالأميين الذين بعث فيهم النبي الأمي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بملة سهلة سمحة، والفلسفة على فرض أنها جائزة الطلب، صعبة المأخذ وعرة المسالك بعيدة الملتمس، لا يليق الخطاب بتعلمها كي تتعرف آيات الله ودلائل توحيده للعرب الناشئين في محض الأمية، فكيف وهي مذمومة على ألسنة أهل الشريعة منبه على ذمها.)[5]

و يتبين مما سبق أن ما ينسب للشاطبي من اعتراضه على التفسير العلمي بحجة أن السلف لم يعرفوا هذا النوع من التفسير هو قول غير مسلم به من عدة وجوه:

منها أن الاحتجاج على فساد التفسير العلمي بكون الجيل الأول من الصحابة والتابعين لم يعرفوا هذا النوع من التفسير لا ينهض كدليل كاف على ما ذهبوا لأن مختلف العلوم الشرعية لم تكتمل في صورتها النهائية في هذا العهد، ولم يقل أحد بأن تفسير القرآن إنما هو مقصور على هذا العهد وإلا كان التفسير بالرأي بكل ألوانه باطلا، وكان الأمر بالتدبر للقرآن الكريم مقصورا على جيل

---

[1] . سورة المؤمنون، الآية: 114.

[2] . سورة الرعد، الآية:3.

[3] . سورة الرحمن، الآية: 3.

[4] . سورة الأعراف، الآية :185.

[5] . الموافقات، 27/1.

دون جيل، فلا شك أن السلف فسروا من القرآن ما دعت إليه حاجتهم، وإنما كانت لهم مجرد إشارات مختصرة، وقد كان أغلب تفسير الصحابة والتابعين يتميز بالإيجاز والاختصار في هذا الجانب وغيره من الفقه والعقيدة، كما يتبين أن النقل عن الشاطبي بأنه رفض التفسير العلمي للقرآن الكريم من غير تفصيل هو نقل غير دقيق، وإنما اعتبر الزيادة في التفسير عن المعنى المراد تكلفا فقال:(إن علم التفسير مطلوب فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلوما فالزيادة على ذلك تكلف.

ثم صرح برفضه لتفسير القرآن الكريم بالعلوم التي كانت قائمة في الأغلب الأعم على الظن الفاسد والخرافة، ومثل لذلك بالفلسفة التي لا تليق أصلا أن تلتمس، بل لا يليق الخطاب بتعلمها كي تتعرف آيات الله ودلائل توحيده للعرب الناشئين في محض الأمية، فيكيف وهي مذمومة على ألسنة أهل الشريعة منبه على ذمها ..

وهذه العلوم المذمومة والتي يرجح فسادها لا يصح تعلمها فضلا عن اعتمادها في تفسير القرآن الكريم، وبذلك قال أبو حامد الغزالي . وهو من أنصار التفسير العلمي للقرآن الكريم . وفي ذلك يقول في تصنيف العلوم:(.. والرابع الطبيعيات، وبعضها مخالف للشرع والدين الحق، فهو جهل وليس بعلم حتى يورد في أقسام العلوم)[1]

ويتلخص من عرض رأي الشاطبي في هذه المسألة أنه لا ينهض كحجة قوية على فساد التفسير العلمي القائم على ضوابط التفسير بالرأي المحمود، وإنما يمكن إدراج رأيه في الاعتراض على تفسير القرآن بالرأي المذموم، وهذا لا يختلف أهل العلم في فساده وبطلانه.

---

[1] . أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين، طبعة دار عالم الكتب، لبنان، 20/1.

2 ـ أن القرآن الكريم موجه إلى عموم الناس، بينما يتوجه العلم إلى أهل الاختصاص، لذلك لا يعتمد في الحقائق القرآن ية إلا على المشاهد والأمور القريبة من الإدراك.

ولرد هذه الشبهة نقول: إن توجه القرآن الكريم إلى عموم الناس لا يستلزم خلوه من هذه العلوم التي يعود فهمها إلى أهل الاختصاص، لأن كثيرا من المطالب العلمية التي هي في القرآن الكريم ليست من العلوم الكونية والطبيعية ولكن لا يفهمها عموم الناس، بل يجب أن يعودوا في فهمها إلى الراسخين في العلم لقوله تعالى :"ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم"[1] ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: (التفسير أربعة أقسام: قسم لا يعذر أحد بجهله، وقسم تعرفه العرب من لغتها، وقسم تعرفه العلماء، وقسم استأثر الله تعالى بعلمه..)[2] ولقد مدح القرآن الكريم الذين يشتغلون بالتفكر في خلق هذه الأكوان، لأن في ذلك ما يدل على حكمة الخلق وعظمة الخالق .

3 ـ وقالوا في الشبهة الثالثة: إن القرآن الكريم يخاطب النفوس بينما يخاطب العلم العقول، فكانت الأهداف في القرآن نفسية وجدانية مطيتها التأمل المتدين والاعتبار النفسي، بينما لا تهدف العلوم إلى شيء من ذلك..

إن هذا الاعتراض هو الآخر لا يصح من عدة وجوه، فالقول بأن القرآن الكريم يخاطب النفوس بينما يخاطب العلم العقول غير مسلم به، إذ الثابت بالاستقراء من القرآن الكريم أن الله تعالى خاطب العقول مثلما خاطب النفوس، بل إن الخطاب المتوجه إلى العقول في القرآن الكريم هو الغالب، لأن العقل شرط التكليف والإيمان، قال تعالى :" وتلك الأمثال نضربها للناس

---

[1] . سورة النساء، الآية:82.

[2] . الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرءان، دار الفكر، بيروت، 1995م، مج54/1.

ومـا يعقلهـا إلا العـالمون"[1] وقـال أيـضا :"إن فـي خلـق الـسماوات والأرض واخـتلاف الليـل والنهـار لآيـات لأولـي الألبـاب.."[2] بـل كثيـرا مـا نـص القـرآن الكريم على أن التفكير طريق الإيمان، ولكن العوارض النفسية هي التي تقف عائقا دونه، ومن ذلك مثلا ما جاء في قوله تعالى :"قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة .."[3]

ثـم إن القرآن الكريم قد حث . ضمن ما حث به . على النظر والتأمل المتدين الذي يقود إلى معرفة عظمة الله وعلمه وحكمته التي تجلت في إحكام الصنع وإتقانه فقال:"وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء.."[4] بل إن دعوة أنصار التفسير العلمي للقرآن الكريم تتجه إلى جعل البحوث العلمية تنشأ وتنضج في محراب الإيمان، لتكون العلوم الـشرعية والكونيـة تـصب فـي مـصب واحـد مثلمـا يـصدر شـعاعها عـن مـشكاة واحدة، وهو ما دعا إليه القرآن في أول أية نزلت منه في قوله تعالى:"اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علـم الإنـسان مـا لـم يعلـم "[5] فقـد امتزجـت الحقيقـة العلميـة فـي هـذه الآيـات بالحقيقة الإيمانية، وبدا كل منهما مكملا للآخر لا مناقضا له .

4 ـ وقالوا في الشبهة الرابعة: تتسم الحقائق في القرآن بالاستقرار، بينما تخضع النظريات إلى التغير المستمر، لذلك يعرّض التفسير العلمي القرآن إلى البلبلة، ويفضي إلى النيل من قدسيته.

---

[1] . سورة العنكبوت، الآية: 43.

[2] . سورة آل عمران، الآية: 190.

[3] . سورة سبأ، الآية: 46.

[4] . سورة النمل، الآية: 90.

[5] . سورة العلق، الآيات:1 . 5.

وهذه فرضية غير صحيحة، ولا يقول بها الراسخون في العلم، بل إن العلماء اليوم يؤمنون بوجود حقيقة علمية ثابتة، والتطور لا يعدو أن يكون تدقيقا وتفصيلا في إطار الحقيقة الثابتة والمستقرة، فإذا اكتشف الناس في زمن ما أن الأرض كروية، وقلنا إن القرآن الكريم سبق إلى ذلك، ثم جاءت أبحاث لاحقة وقالت إن الأرض على شكل بيضة أو إجاصة، فإن هذا لم يلغ الحقيقة الأولى، وإنما زادها بيانا وتدقيقا[1].

5 ـ وفي الشبهة الخامسة قالوا:لم يرد التفسير العلمي عن السلف، لذلك كانت الدعوة إليه دعوة إلى الانصراف عن التفسير الذي بلغنا عن مدرسة النبوة، وفي هذا ما فيه من تحويل وجهة المعاني القرآن ية ومفهوم الإعجاز في القرآن كما قررته مدرسة النبوة، وفيه أيضا ما فيه من تجهيل للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصحابة رضي الله عنهم بما أصبح عليه التفسير على ضوء العلوم المستحدثة التي لم تكن قد ظهرت في عصر النزول ولا بعده، كما أن في هذا التفسير تصرفا غير مشروع في اللفظ والبلاغة القرآنية، إذ تفسر فيه الألفاظ بمعان لم تكن قد اكتسبتها زمن النزول، ويفترض أن يكون المخاطبون ملمين بما لم يكن قد ظهر بعد من العلوم .

ونقول إن الأخذ بالتفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم معناه تقديم تفسير زائد عن الحقائق الشرعية التي قررتها تلك الآيات، ولم يدع أحد أن معاني القرآن الكريم إنما هي محصورة فيما فسر به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن ولا فيما فسر به الصحابة والتابعون، بل الظاهر عند أهل العلم أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يفسر من القرآن الكريم إلا بالقدر الذي خفي عليهم مما وسعهم في حياتهم يومئذ، ولو قلنا بذلك لقلنا بمنع التفسير

---

[1] . د/بشير تركي، لله العلم، ص: 82.

القائم على الرأي والاجتهاد بكل ألوانه، وقلنا ببطلان الاجتهاد أصلا، ولكانت كل العلوم التي استنبطها المتأخرون من القرآن لاغية وباطلة .

كما أنه لا تلازم بين الأخذ بالتفسير العلمي للقرآن الكريم وبين الانصراف عن التفسير الصادر عن مدرسة النبوة، ولم نجد من أنصار العلمي من قال بذلك، ولو وجد لكان قوله مردودا عليه، لأن التفسير بالمأثور مما صح رفعه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو وقفه على كبار الصحابة والتابعين كان متعلقا ببيان الأحكام التكليفية المرادة من خطاب الشارع، ويشترط في التفسير العلمي السليم ـ مثلما يشترط في أي تفسير آخر ـ ألا يناقض أصول الأحكام الشرعية ومقاصد الدين العامة .

6 ـ وفي الشبهة الخامسة قالوا: إن التفسير العلمي للقرآن تفسير طارئ وهو وليد أحداث مستجدة في العصر الحديث نتجت عنها في المجتمعات الإسلامية تحديات قومية وحضارية تعود أساسا إلى انبهار الشرق بما بلغ الغرب من تقدم علمي ورقي حضاري، لذلك سعى القائلون بالتفسير العلمي للرد على هذه التحديات، وللتنويه بالقرآن في إعجازه ومفهوم صلاحيته لكل زمان ومكان سعوا إلى التأكيد على اشتمال القرآن على أسباب تفوق الغرب في العلوم الحديثة :

وقد بينا في ما سبق أن القول بأن التفسير العلمي للقرآن طارئ ومستحدث غير مسلم به، وأن الإشارة إلى شرعيته يمكن استمدادها من مقول ابن عباس المشهورة في أنواع التفسير.

فقول ابن عباس رضي الله عنهما التفسير أربعة أقسام :(قسم لا يعذر أحد بجهله، وقسم تعرفه العرب بلغتها، وقسم تعرفه العلماء، وقسم استأثر الله بعلمه فيه أكثر من دلالة:

منها أن آيات القرآن من حيث وضوح دلالتها ليست في درجة واحدة، فمنه ما تفهمه العامة، ومنه ما يعلو عن أفهامهم فينبغي رده إلى أهله لقوله تعالى:"فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون "[1] وهو ما قرره علماء الأصول بأن آيات القرآن متفاوتة من حيث درجات وضوحها ودرجات غموضها.

ومنها أن معرفة لغة القرآن الكريم لا تكفي وحدها لمعرفة معاني كل آيات القرآن ، فمنها ما تفهمه العرب من لغتها، ومنها ما يحتاج في فهمها إلى علوم أخرى، فآيات الأحكام تحتاج إلى معرفة بالفقه وأصوله، وآيات التوحيد تحتاج إلى معرفة بالعقيدة والتوحيد، وآيات القصص تحتاج إلى معرفة بالتاريخ والأخبار والمرويات، وكذلك الآيات المتعلقة بالظواهر الكونية فإن المفسر لها يحتاج إلى قدر من العلوم الكونية للوقوف على حقائقها .

ويتلخص من مجموع ما قدمناه أن الاعتراضات على التفسير العلمي للقرآن الكريم إنما هو اعتراض على النقائص والعيوب التي وقع فيها أصحاب هذا الإتجاه، وهذه النقائص والعيوب في الحقيقة لم ينفرد بها هذا الاتجاه وحده بين مختلف اتجاهات التفسير، بل لكل اتجاه عيوبه التي علقت به، بل حتى اتجاه التفسير بالمأثور قد علقت به بعض العيوب والنقائص، مثل حذف الأسانيد، وشيوع الإسرائيليات، وكثرة الوضع في التفسير المنسوب لكبار الصحابة والتابعين، وعلى الرغم من هذه السلبيات فإن الواجب على أهل العلم هو العمل على تخليص التفسير بالمأثور من هذه العيوب وليس العمل على التخلص من التفسير بالمأثور نفسه، ولو دعا داع إلى وجوب طرح التفسير بالمأثور لما علق به من عيوب لأنكرنا عليه بل وأسأنا الظن به، لما يترتب على دعوته من ضياع فوائد علمية كثيرة في هذا التفسير بالمأثور الذي اختلط فيه الغث بالسمين.

---

[1] . سورة الحجر، الآية:

فالتفسير العلمي ضرب من التفسير بالرأي، وهو قريب من التفسير الإشاري الذي أقره العلماء بجملة من الضوابط منها :

- ألا يتعارض ومقاصد الشريعة.
- ألا يخالف ظاهر النص القرآن ي.
- ألا يخالف قواعد اللغة.
- ألا يظن المفسر بأن تلك الحقيقة العلمية مقصودة لذاتها، ولكنه معنى زائ

في الآية، فإن علماء السلف فهموا المعنى الهدائي والتكليفي من الآية، وه المقصد الأساسي في آي القرآن ، وهو ما دلت عليه الآية بالعبارة، وأن الحقيق العلمية هو ما دلت عليه الآية بالإشارة[1]، وإذا كانت الحقيقة العلمية قد دلت عليها مختلف الآيات بالإشارة، فإن المعنى الأولي للآية الذي دلت عليه العبار لا يتأثر بفساد النظرية العلمية القائمة على الاجتهاد البشري، مثلما نعتبر المقارب بين النظريات العلمية وبين ما دلت عليه الآيات القرآن ية بالإشارة لا يعدو أ يكون نوعا من الاجتهاد الذي هو من قبيل التفسير بالرأي، وأن التفسير بالرأي والاجتهاد ليس حجة ملزمة لأحد، بل يبقى قابلا للبحث والنظر، فيصح الأخ به مثلما يصح رده، وبذلك يمكن التفريق بين نسبة الخطأ للمفسر في اجتهاد وبين نسبة الخطأ للقرآن الكريم، أي أن الخطأ في حقيقة الأمر وارد في اجتها المفسر في فهم النص القرآني، وليس واردا في القرآن نفسه، والأدلة على ذلك كثيرة:

---

[1] . يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور:"إن جلب المسائل العلمية في الآيات يكون على سبيل الاستروح لا على سبيل القصد والغرض الأصلي للآية.) انظر تفسير التحرير والتنوير مج1/42.

من ذلك مثلا قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى :" أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق.. "[1] بأن في الآية دليلا على بطلان قول من قال بأن مصدر المطر البحر وليس السماء كما يقول علماء الهيئة[2]، فالخطأ هنا وارد في فهم الزمخشري، وليس في مدلول الآية، فالآية لا تدل لا بالعبارة ولا بالإشارة على مصدر المطر كما توهم الزمخشري، والباحثون في التفسير العلمي إنما هم أولئك الذين نبغوا في هذه العلوم الكونية والتطبيقية، وليس بالضرورة هم علماء التفسير.

ومثل ذلك ما صدر عن القرطبي في تفسير قوله تعالى :" وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا.."[3] حيث قال :(وفي هذه الآية رد على من زعم أن الأرض كالكرة.. والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدها، وأن حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبها.)[4] ولا شك أن مثل هذا الاستنباط عند القرطبي غير سليم حتى من الناحية اللغوية، فهذا الزمخشري وهو سابق عليه من الناحية الزمنية يخالفه ويقول :(ومعنى جعلها ـ أي الأرض ـ فراشا وبساطا ومهادا للناس أنهم يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده، فإن قلت : هل فيه دليل على أن الأرض مسطحة وليست بكروية ؟ قلت : ليس فيها إلا أن الناس يفترشونها كما يفعلون بالمفارش، وسواء كانت على شكل السطح أو شكل

---

[1] . سورة البقرة، الآية:22.

[2] , الزمخشري، الكشاف، 80/1.

[3] . سورة ، الآية: 3.

[4] . القرطبي، الجامع لأحكام القرءان، ج280/9.

الكرة، فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع، لعظم حجمها، واتساع جرمها، وتباعد أطرافها .)[1]

ولا شك بأن الخطأ في مثل هذين الموضعين واقع في فهم المفسر، وليس في ما دلت عليه الآيتان، فالآية الأولى لا تدل على أن مصدر المطر هو السماء، كما أن الآية الثانية هي الأخرى لا تدل على بطلان القول بكروية الأرض.

ثم إن أنصار التفسير العلمي للقرآن فرقوا بين النظريات العلمية والحقائق العلمية، فالأولى ظنية ومتغيرة نسبيا، والثانية قطعية ومستقرة، وهم متحمسون لتفسير القرآن في ضوء الحقائق العلمية وليس في ضوء النظريات العلمية الظنية[2]، وقد مثّل بشير التركي للحقيقة العلمية بكروية الأرض، ومثّل لها الكاتب الفرنسي موريس بوكاي بدوران الأرض حول الشمس ودوران القمر حول الأرض، والأصل المائي للحياة، وتطور الأجنة في بطون أمهاتها، فإن هذه الحقائق العلمية وأمثالها مما تكرر ذكرها في القرآن الكريم، وهي مما كان العرب ـ بل وأغلب البشر ـ لا يمكنهم معرفته، فكان ذكر القرآن الكريم لها دلالة قاطعة على أن هذا القرآن ليس من عند محمد ولم يتعلمه من أحد من البشر، وهي أبلغ في جانب الإعجاز من الجانب البلاغي في القرآن الكريم، ولو اقتصر إعجاز القرآن الكريم على ما فيه من أساليب بلاغية راقية لأصبح قولهم:" إنما يعلمه بشر " شبهة قائمة لنبوغهم في هذا الجانب، وأما أن القرآن الكريم قد تضمن وجوها أخرى من الإعجاز لا قبل لهم بها، ولم تكن بين

---

[1] . الكشاف : 94/1.

[2] . انظر: يشير تركي، لله العلم،ط1، 1979، تونس، ص:82، وموريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرءان والعلم، ترجمة الشيخ حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت،ط3، 1990.ص:125.

أيديهم من الوسائل التي تمكنهم من البحث فيها، فإن هذا يسقط كل شبهة توحي بأن القرآن من عند بشر.

وهكذا فإننا بعد البحث والنظر نجد قول من قالوا بأن تحميل آيات القرآن الكريم لمضامين النظريات العلمية يجعل القرآن عرضة لطعن الطاعنين وتشكيك المشككين هي مجرد تحفظ ودعوى من غير دليل، وأن الذين أوردوا هذه الشبهة لم يوردوا مثالا واحدا على ما يقولون .

وأكد موريس بوكاي على هذا المعنى عندما اعتبر أن هدف القرآن ليس أن يبسط القوانين التي يسير عليها العالم، بل أن يلفت الانتباه إلى عظمة القدرة الإلهية[1].

وإلى هذا المعنى أشار الدكتور بشير تركي في قوله :(إن القرآن وحي إلهي لا ريب فيه، وإنه كتاب علم وهذا لا يعني أنه يحتوي على المعادلات الحسابية والنظريات العلمية، ولكنه يعني أنه نابع من روح العلم وجوهره، كما أن القرآن معجزة بلاغية فهذا لا يعني أنه يحتوي على قواعد البلاغة ولكنه يعني أنه نابع من روح البلاغة وجوهرها .)[2]

ولا ننسى أن خصوم التفسير العلمي للقرآن الكريم إنما ارتسمت في أذهانهم صورة قاتمة عن هذا الاتجاه من التفسير من خلال كتاب "الجواهر في تفسير القرآن " للعلامة طنطاوي جوهري، فظنوا أنه النموذج الأوحد في هذا الباب، علما بأن تفسير طنطاوي جوهري قد انطوى على جملة من العيوب والنقائص، ونذكر منها:

1 . اعتماده التوراة والانجيل في تفسير آيات القرآن في حين نجده يعيب على القدامى ما أدخلوه في التفسير من إسرائيليات.

---

[1] . موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرءان والعلم/ص:124.

[2] . بشير تركي، لله العلم،ص:143.

2 . اعتماده بعض العلوم التي هي إلى الخرافة أقرب في كتابه كعلم تحضير الأرواح في كثير من المواطن .

3 . ميله إلى التفسير الباطني في فهم القرآن، حيث كان يعتبر التفسير الذي تدل عليه عبارة النص تفسيرا لفظيا قاصرا، ويجعل من الإشارات العلمية التي تلوح له من قريب أو من بعيد في النص القرآني هي جوهر تفسير الآية.

4 . سوغ لنفسه كثيرا من التأويلات البعيدة .

5 . اعتماده حساب الجمل، وهو حساب قائم على الرمز والقول بالباطن في الأرقام الحسابية.

6 . تحامله على علماء الإسلام بقسوة، واتهامهم بالتقصير والجهل وضيق الأفق في البحث والنظر، ومن ذلك قوله: (فالعالم الفقهي بفقهه مغرور، والعالم بالتوحيد مغرور، والصوفي مغرور، والعابد مغرور، وكل حزب اقتصر على شيء من الدين وشمخ بأنفه عن الباقي فهو مغرور، وما دين الإسلام إلا العلم والعمل، بكل ما يحتاج له المسلمون في كل زمان بحسبه كما فعل أهل أمريكا وغيرهم في الوقت الحاضر، فلا يكون قوم بسبب الدين عالة على قوم بل كل الناس متعاونون.)[1]

7 . مبالغته في الدعوة للاقتداء بالإفرنجة في ما صح أو لم يصح من العلوم والتجارب.

8 . حصره سبب تخلف المسلمين في التخلي عن العلوم الكونية، وهناك أسباب ربما كانت سابقة عن هذا لتخلفهم .

9 . كثرة استطراده لحشد علوم وأخبار خرجت بكتابه عن مفهوم التفسير.

10 . اعتباره لهذه الاستنباطات العلمية هي المقصد الأساسي الذي سيقت للدلالة عليه الآيات القرآنية وهو أهم خطأ وقع فيه.

---

[1] . طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرءان، مج282/2.

11. كان الرجل معجبا بنفسه شديد الإعجاب، ويتضح هذا من خلال كثرة انتقاصه من غيره، وكثرة التزكية لتفسيره من خلال ترديده لعبارة " بمثل هذا تفسر هذه الآيات .." وقوله:".. وبمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله".

12 . تأثره بخليط من الفلاسفة من الشرق والغرب، ونقله عنهم بعضا مما هو غريب عن الفكر الإسلامي وعن الفكر السليم بصفة عامة مثل فلاسفة اليونان وفلاسفة الغرب وإخوان الصفا وغيرهم.

والظاهر أن العلامة طنطاوي جوهري إنما وقع في مثل هذه النقائص بحكم وقوعه تحت تأثير جملة الأسباب . لا يتسع المقام لتفصيلها هنا . حملته على وضع هذا التفسير، وليس بالضرورة أن يكون كتابه هذا هو النموذج الأمثل في التفسير العلمي للقرآن الكريم.

والذي وصلنا إليه بعد البحث هو أن الذي ينبغي فهمه من عبارة التفسير العلمي يتمثل في البحث في سر المطابقة الكلية التي يلاحظها الباحث بين العبارة القرآن ية والواقع الذي تشير إليه، ولا يمكن الوقوف على هذا هذه المطابقة إلا عن طريق العلم.

لذلك لاحظنا أنه من أوجه الإعجاز في القرآن ما سميناه أسبقية زمنية[1] وهي كما رأينا قاسم مشترك بين معجزات الأنبياء جميعا (ومثال ذلك معجزات عيسى عليه السلام عندما كان يبرئ الأكمه والأبرص، فإن الطب اليوم وإن وصل إلى فعل بعض ما كان عيسى عليه السلام يفعله من تطبيب الناس، فإنه لا مجال للمقارنة بين هذا وذاك، لأن ما يفعله الطبيب اليوم إنما يفعله وفق الأسباب وقوانين العلم من ملاحظة وفرضية وتجربة ومرحلية وتدرج في العملية كلها، وأما ما فعله عيسى عليه السلام فوجه الإعجاز فيه أنه قائم على

---

[1] . هند شلبي، التفسير العلمي للقرءان بين النظرية والتطبيق، تونس، 1985، ص:163.

خرق كل تلك الأسباب، مما يجعل تطبيبه باقيا يحمل معنى الإعجاز على وجه الدوام .)[1]

وإذا كانت بلاغة القرآن الكريم التي تمثل أحد جوانب الإعجاز فيه قد جذبت إليها أرباب البيان فوضعوا المؤلفات الكثيرة في الكشف عن الإعجاز البلاغي فيه، واعتبر ذلك خدمة للقرآن الكريم، ولم يقل أحد إن هذا إسراف يؤدي إلى القول بأن القرآن الكريم جاء لإضافة فنون جديدة في لغة العرب كما لم يقل أحد من أهل العلم بأن في هذه الدراسات تكلفا وتحميلا لعبارات القرآن ما لا تحتمله أو أن هذه التقنينات البلاغية التي وضعوها ووظفوها في الكشف عن معجزة القرآن البلاغية طارئة ولم يعرفها الصحابة، بل كان للقرآن الكريم الفضل الأول في استنباط مختلف قواعد اللغة العربية وعلومها من نحو وصرف وبلاغة.

فإذا كان أرباب البيان يتدبرون بلاغة القرآن ويستنبطون منه أصول التعبير ويستدلون بذلك على إعجازه، فإن الأمر لا يختلف فيما تضمنه القرآن من أخبار الغيوب أن يستدل بها على صحة بعض العلوم أو بطلانها زيادة على الدلالة الإعجازية فيها .

ومما ينبغي التنبيه عليه من جهة أخرى أن الله تعالى قد ذكر في كتابه الكريم أن القرآن معجز بمعنى لا يستطيع أي مخلوق من الجن والإنس أن يأتي بمثله، وقد تكرر التأكيد على كونه معجزا في عدة مواضع من القرآن الكريم، ولكنه لم يصرح ولو في موضع واحد من هذه المواضع بوجه الإعجاز فيه وسره، وإنما استدللنا على ذلك بأن معجزة كل نبي إنما تكون فيما برع فيه قومه، وأن معجزة محمد . ص . كانت بلاغية لكون العرب يومئذ قد برعوا ونبغوا في بلاغة التعبير وفنون القول والخطاب،

---

[1] . المصدر نفسه: 163.

وإذا كان العرب يوم نزول القرآن الكريم كما وصفهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: "كان الشعر علم القوم، لم يكن لهم علم أصح منه"[1] فإن همتهم تعلقت بما علموه من بلاغة الكلام فتدبروه من هذا الجانب، وأظهروا إعجازه وفهموا ما وسعهم فهمه، ولا يقدح في مكانتهم كونهم لم يفهموا الآيات المتعلقة بجانب الإعجاز العلمي، لأن أدوات البحث في هذا الجانب لم تكن متوفرة، ويكفيهم أن الإعجاز البلاغي قد سد مسده، وقامت به الحجة عليهم، وقد أقر بذلك مؤمنهم وكافرهم .

فقد ترجح إذن أن يكون التحدي واقعا لهم من هذا الجانب، وهذا صحيح، ولكنه لما كان التحدي غير مقصور على زمان معين أو مكان محدد، بل هو أمر مستمر إلى أن تقوم الساعة لقوله تعالى:" قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله.."[2] وقوله:" وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة.."[3]

فإن هذا يقضي بأن التحدي بالقرآن الكريم قائم من وجوه كثيرة، ولكل أهل عصر أن يبحثوا في هذا الكتاب عن سر الإعجاز والتحدي بما يزيدهم إيمانا بكلام ربهم ويقوي تعلقهم به .

وهكذا فإن الذين عللوا إعجاز القرآن في القرون الأولى ببلاغته بناء على ذوقهم وحسهم البلاغي الرفيع فإن ذلك يناسب حالهم، وكذلك الذين ذهبوا إلى تعليل سر إعجاز القرآن الكريم في عصر العلوم التطبيقية بما تضمنه من

---

[1] . د/أحمد رحماني، نظريات الإعجاز القرءاني،ص:128.

[2] . سورة الإسراء، الآية : 88.

[3] . سورة البقرة، الآية : 22.

إشارات علمية دقيقة قد أحسنوا التعليل أيضا بما يناسب حالهم أيضا، وهم يستندون في ذلك إلى قوله تعالى :" سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد"[1]

وإذا كان الإنسان العربي في عصر التنزيل يسمع الآية من القرآن الكريم فيقف مبهورا أمامها لما فيها من حسن البيان فيؤمن به، فإن رجل العلم اليوم قد لا يستطيع أن يدرك إعجاز القرآن من خلال حسن بيانه، ولكنه قد يدركه بسهولة عند سماعه بعض القرآن في عرضه لآية من الآيات الكونية، من ذلك مثلا ما جاء في قوله تعالى :" ألم تر أن الله يزجي ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار"[2] فقد عرضت الآية لجملة من السنن الكونية وقوانين الطبيعة التي أودعها الله في خلقه، ثم دعا في آخر الآية إلى تدبرها والاعتبار بها .

ولا شك أن دعوة التدبر في هذه الآية ليس المقصود بها بلاغة الآية بقدر ما هو مقصود بها تدبر عجائب هذا الكون تدبرا إيمانيا يفضي إلى استشعار عظمة الله وقدرته في الخلق والتسخير.

ونجد مثل هذا في سورة المؤمنون في قوله تعالى:" ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين"[3] وحتى إن لم يكن العرب يتوفرون على وسائل

---

[1] . سورة فصلت، الآية: 52.

[2] . سورة النور، الآية: 42.

[3] . سورة المؤمنون، الآية: 12. 14.

البحث في ما تشير إليه هذه الآيات، فإن معناها على وجه الإجمال الذي يورث النفوس إدراك مظاهر القدرة الإلهية في خلقه كان حاضرا، أما المعنى التفصيلي الدقيق الذي غاب عنهم فلا يقدح في فهمهم للقرآن ، لأن ذلك قدر زائد على الجانب التكليفي في الآية القرآن ية . ولأن الإيمان حاصل بمجرد التسليم بقدرة الله وتفرده في ملكه بالخلق والتدبير، ولا يتوقف على ضرورة إدراك أطوار الخلقة في الكائنات، وهو ما نفهمه من قوله تعالى :" وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم "[1] فإن عدم علم إبراهيم عليه السلام بأطوار خلق الكائنات الحية لم يقدح فيما يحمله من علم هدائي للبشرية، ولم يناف كمال الإيمان عنده، وإنما تشوفت نفسه لأن يطلعه ربه على بعض قدرته في الخلق، وهو مطلب محمود ومقصد حسن، ومن تم أجابه ربه لطلبه .

الخاتمة

لقد جاء القرآن الكريم معجزا في بلاغته وأسلوبه، وسمو معانيه وجوامع كلمه، وجاء معجزا بما قصه من سير الأنبياء والمرسلين السابقين، التي ما كان يعلمها سوى أهل الكتاب، وجاء معجزا بما تضمنه من تشريعات حكيمة ومثل عليا تتفق مع طبائع البشر وحاجاتهم في كل زمان ومكان تكميلا لفطرتهم وضمانا لسعادتهم،، وجاء معجزا بما حوى من آيات العلم والمعرفة الصحيحة عن الجانب المادي من الكون مما لم يكن للناس علم به قبل نزوله أو بعده حتى جاء العلم الحديث بوسائل بحثه الدقيقة والمستندة إلى الخبرة والمشاهدة منذ أكثر من قرنين من الزمان، فكشف عن كثير منها وأماط اللثام عن حقائقها، ولم تتعارض حقائقه معها في شيء ما .

---

[1] . سورة البقرة، الآية:259.

ولما كان القرآن منزلا للناس كافة في كل زمان ومكان من أهل العربية وغيرهم، ويصعب على غير العرب إدراك معجزته الكبرى الممثلة في بلاغته وأسلوبه، كان لهم من معجزاته الأخرى التي أوضحناها آنفا عن طريق ترجمة معانيه ما يمكنهم من إدراك إعجازه ويلزمهم الحجة بصدق دعواه، إذ يفي نقل المعاني دون النص الأصلي بالغرض المقصود في هذا الشأن، وعلى امة القرآن اليوم أن تسعى في خدمة هذا الاتجاه من التفسير بتمحيصه وتنقيته مما علق به من النقائص العيوب، واستثمار ما فيه من المزايا والمحاسن، وبخاصة إذا علمنا أن القرآن الكريم اليوم ينفرد بهذا النوع من الإعجاز بين الكتب السماوية التي بين أيدي الناس في هذا العصر.